

الدعوة الى الإسلام والعلاقات الدولية: قراءة في الوعي السياسي في مطلع القرن العشرين

عبد الرؤوف سنو
أستاذ في الجامعة اللبنانية

تحتوي إحدى ملفات "الأرشيف السياسي في وزارة الخارجية الألمانية" على رسالة غير عادية بعث بها اثنان من أنصار حركة "الجامعة الإسلامية" في مصر إلى إمبراطور ألمانيا وليام الثاني بتاريخ 18 كانون الأول 1905.¹ في هذه الرسالة دعا التبليغيان الإسلاميان، قاسم بن سعيد الشماخي العامري ومصطفى بن إسماعيل العمري الفارضي، الإمبراطور وشعبه إلى اعتناق الإسلام. وفي الرسالة نفسها، طلبا من الإمبراطور بدوره إقناع ميكادو اليابان وشعبه بقبول الإسلام ليتشكل من اليابان وألمانيا والدولة العثمانية أمة إسلامية عظيمة "توحد الله ولا تشرك به شيئاً".

هل تدل هذه الرسالة على سذاجة مرسلها وافتقارهم إلى النضج السياسي وتعكس مدى تأثير المسلمين في العالم بسياسة ألمانيا الإسلامية؟ ما هي الأسباب التي جعلت كلا من الداعيتين المذكورين يسعيان إلى إدخال اليابان ضمن مشروعهما، وهي التي لم تعتمد آنذاك سياسة إسلامية في علاقاتها الخارجية؟ ولماذا كان عام 1905 تاريخاً حاسماً في توقيت الرسالة؟ أخيراً، هل يمكن اعتبار الأفكار التي تضمنتها الرسالة حول أسلمة ألمانيا واليابان نموذجاً للفكر الإسلامي المعاصر آنذاك؟

للإجابة على هذه التساؤلات، لا بد من إلقاء نظرة على سياسة ألمانيا الإسلامية وعلى انتصار اليابان على روسيا عام 1905² ومدى انعكاسهما على المسلمين في العالم إبان اعتماد السلطان عبد الحميد الثاني سياسة الجامعة الإسلامية، ومن ثم الحكم على فكر الداعيتين وقياس مدى تطابقه مع الفكر الإسلامي المعاصر حينذاك.

1) سياسة ألمانيا الإسلامية: أهدافها وردود الفعل عليها

على الرغم من حالة الضعف التي لحقت بها داخلياً واستيلاء دول أوروبا تدريجاً على ممتلكاتها، ظلت الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى جانب المغرب الأقصى، آخر الدول الإسلامية المستقلة من الناحية النظرية. فبعد سقوط الجزائر وتونس في يد

¹ PAAA, OG 9, Bd. 2, A 1173, 16. Jan. 1906; Tucher an AA, Nr. 2, A 1738, Malta 24. Feb. 1906.

² هي تلك الحرب التي نشبت بين اليابان وروسيا بسبب احتلال الروس لمنشوريا. بدأت بتدمير اليابانيين جزءاً من الأسطول الروسي في ميناء بورت آرثر في 9 شباط 1904، وانتهت في أيلول 1905 بصلح اعترفت روسيا بموجبه بنفوذ اليابان في كوريا، وبعلاؤها عن منشوريا.

فرنسا على التوالي عامي 1830 و 1881، ووقوع مصر عام 1882 تحت احتلال بريطانيا، فقدت هاتان الدولتان الاستعماريتان مصداقيتهما في أعين العثمانيين بأنهما تحافظان على سلامة السلطنة. كما تدخلت بريطانيا وفرنسا بشكل سافر في الشؤون الداخلية للسلطنة وحرصتا الملل المسيحية ضد سيادة السلطان العثماني. ومنذ ذلك الحين، أخذت الدولة العثمانية تسعى لكسب ود ألمانيا لموازنة النفوذ الأجنبي المتصاعد داخل البلاد، وذلك بعدما وجدتها أقل الدول الاستعمارية طمعاً في ممتلكاتها وانتفاعاً بتجزئتها.³

حتى قيام ألمانيا الموحدة عام 1871، انحصرت المصالح الألمانية في الدولة العثمانية في مجالي التجارة والثقافة. وعندما أصبح بسمارك مستشاراً لألمانيا، حافظ حتى على إقصائه عن السلطة عام 1890 على سياسة تقوم على تجنب الدخول إلى حلبة الصراع حول المسألة الشرقية وتركها ملهة لتنافس الدول الاستعمارية الأخرى، وخصوصاً فرنسا وبريطانيا. بدلاً من ذلك، ركز بسمارك جهوده للحفاظ على مكتسبات بلاده من حربها ضد فرنسا عام 1870/1871 والتغلغل السلمي في الدولة العثمانية في المجالات التجارية والاقتصادية والثقافية. وفي هذا الإطار، لا تعتبر موافقته مطلع الثمانينات على إرسال مستشارين عسكريين وإداريين للعمل في الدولة العثمانية خروجاً عن السياسة المرسومة تجاه المسألة الشرقية. جاء هذا القرار نتيجة إدراكه أهمية الدولة العثمانية في التوازن تجاه روسيا فيما لو ساءت علاقات بلاده بها وقام تحالف روسي - فرنسي ضد ألمانيا (= نظرية الكماشة).⁴ لذلك، كان بسمارك مهتماً في أعقاب سقوط تونس ومصر بأيدي الفرنسيين والبريطانيين ألا يضعف مركز السلطان عبد الحميد، وذلك للاستفادة منه في وجه روسيا، وفي مشاريع بلاده الاستعمارية في إفريقيا. فقام بتوظيف نفوذ السلطان كخليفة لتسهيل تغلغل بلاده الاستعماري في زنجبار عام 1886، ومناهضة نفوذ فرنسا في شمال إفريقيا بين عامي 1885 و 1887.⁵

مع تنامي علاقاتها مع الدولة العثمانية، وخصوصاً منذ أواخر الثمانينات، تشابكت مصالح ألمانيا الاقتصادية في الدولة العثمانية مع مصالحها السياسية، مما نتج عنه اعتماد برلين سياسة تقوم على الحفاظ على سلامة ممتلكات السلطان. تزامن ذلك مع دخولها في عهد الإمبراطور وليم الثاني عصر التنافس الإمبريالي مع الدول الكبرى حول تقاسم ما تبقى من العالم.⁶ وفي عام 1896، أعلن إمبراطور ألمانيا عن عزم بلاده المشاركة في اقتسام العالم تحت شعار أن تؤمن لها "مكاناً تحت الشمس" (Platz an der Sonne)، كما جاء على لسانه.⁷

³ عبد الرؤوف سنو، ألمانيا وسياسة "الاندفاع نحو الشرق": العلاقات الألمانية - العثمانية من 1871 إلى 1918"، في: *دراسات إسلامية* (بيروت) 3(1990/1989)، ص 273 - 281.

⁴ سنو، ألمانيا وسياسة "الاندفاع نحو الشرق"، ص 243 - 253.

⁵ عبد الرؤوف سنو، "سياسة بسمارك الاستعمارية في شرق إفريقيا: محاولات استغلال النفوذ الديني للسلطان العثمانية للتغلغل في زنجبار 1885 - 1890"، في: الياس قطار وأحمد حطيط (ناشران)، *بحوث تاريخية مهداة إلى نقولا زيادة*، بيروت 1998، ص 203 - 232؛ المؤلف نفسه، الدبلوماسية الألمانية ومحاولات إحياء الجامعة الإسلامية بين السلطنة العثمانية والمغرب الأقصى 1870 - 1890، في: *حوليات* (بيروت) 6(1992/1991)، ص 123 - 155.

⁶ Gregor Schöllgen, "Deutsche Außenpolitik im Zeitalter des Imperialismus: Ein Teufelskreis", in: Gregor Schöllgen Ed. *Flucht in den Krieg*, Darmstadt 1991, pp. 170-171.

⁷ سنو، ألمانيا وسياسة "الاندفاع نحو الشرق"، ص 252.

وجدت ألمانيا أن الإعلان عن صداقتها للإسلام، وخصوصاً للسلطان عبد الحميد الثاني، يفتح أمامها السبيل لزيادة تغلغلها في الدولة العثمانية ومنافسة الدولة الأوروبية الأخرى، وخصوصاً فرنسا في ادعاءاتها بحماية الكتلة، وبريطانيا في سياستها "الإسلامية" وهيمنتها على ملايين المسلمين في العالم. ومن هنا، تحول استغلال الإسلام إلى ركن رئيسي في سياسة ألمانيا الخارجية وفي الصراع الدولي. فأعلنت ألمانيا عن صداقتها للمسلمين، وسعت لاستخدام نفوذها لدى السلطان العثماني لضرب السياسة الإسلامية لبريطانيا في الهند ومصر وأطراف الجزيرة العربية، ومصالح فرنسا في شمال إفريقيا وبلاد الشام.

جاء تعبير ألمانيا عن سياستها الإسلامية بوقوفها ضد الدبلوماسية الأوروبية الساعية إلى تقسيم ما تبقى من ممتلكات عثمانية. ففي عام 1895، رفضت ألمانيا بقوة دعوة بريطانية لتقسيم نهائي للسلطنة العثمانية.⁸ كما غضت أثناء ذلك الطرف عن ما سمي بـ"المذابح الأرمنية". وبفضل السلاح الألماني والمستشارين العسكريين الألمان، تمكنت الدولة العثمانية عام 1897 من سحق اليونان إثر انتفاضة كريت.

لأسباب عدة، وفي مقدمها امتناع ألمانيا عن سياسة استعمارية مباشرة تجاه ممتلكات السلطان العثماني، لم يكن بإمكان المسلمين عموماً إدراك خفايا الإمبريالية الألمانية وتغلغلها السلمي في بلادهم. في المقابل، شعروا بوضوح بضغوط قوى الاستعمار الأخرى التي كانت تحكم ما يقرب من 185 مليوناً من المسلمين منتشرين في أنحاء العالم.⁹ ولهذا السبب، وجدت سياسة ألمانيا الإسلامية صدى إيجابياً لدى المسلمين، عامة وزعامات ومفكرين. فسرى اعتقاد عام بأنها الحليف المخلص للإسلام، فيما بريطانيا وفرنسا وروسيا هم أعداؤه. وبذلك، تمكنت ألمانيا من توطيد نفوذها لدى السلطان العثماني خلال التسعينات، مستغلة سمعة عبد الحميد كسلطان - خليفة لتحقيق مآربها الاستعمارية، وتوجت ذلك بجر الدولة العثمانية للتحالف معها فيما بعد خلال الحرب العالمية الأولى.

مثلت زيارة الإمبراطور وليم الثاني إلى عبد الحميد الثاني عامي 1889 و1898 مرحلة جديدة في العلاقات بين ألمانيا والدولة العثمانية. مهدت الزيارة الأولى للتغلغل الاقتصادي - السياسي الألماني في تلك الدولة. وفي الزيارة الثانية، حصل وليم الثاني من السلطان عبد الحميد على وعد بمنح بلاده امتياز بناء سكة حديد بغداد. وبين الرحلتين الأولى والثانية، حققت ألمانيا تقدماً ملحوظاً في علاقاتها التجارية مع السلطنة وفي حجم استثماراتها.

جاءت رحلة وليم الثاني إلى الشرق عام 1898 متزامنة مع تعاضم التنافس الأوروبي في المنطقة. وخلال تلك الرحلة، التي كانت أهدافها السياسية والاقتصادية مغلقة بتدشين بعض المؤسسات الدينية والتعليمية الألمانية في بلاد الشام، حدثت ثلاث مناسبات كان لها وقع كبير على السكان المسلمين. ففي 6 تشرين الثاني، وأثناء توجهه إلى دمشق عن طريق جبل لبنان، استقبل وليم الثاني في محطة بحمدون وفداً من مسيحيي المتن اشتكى إليه أحوالهم في ظل الحكم العثماني. فما كان من الإمبراطور، إلا بادراً إلى القول بأن عليهم كأقلية أن يتحولوا إلى الإسلام، طالما أنهم يعيشون في بحر إسلامي.

⁸ Werner Naef, Die Epochen der neueren Geschichte, Band II, Aarau, o.D., p. 352; E.T.S. Dugdale, German Diplomatic Documents 1871-1914, vol. I, cap. XXIII, London 1928, pp. 327-347.

⁹ Victor Berard, Le Sultan, L'Islam et les Puissances, Paris 1907, p. 36.

بعد يومين على تلك الحادثة، أي في 8 تشرين الثاني، وضع العاهل الألماني إكليلاً من الزهر على ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي بدمشق،¹⁰ وألقى خطاباً اعتبر تحدياً واضحاً لسياسة بريطانيا الإسلامية في الشرق. قال الإمبراطور: "ليوقن صاحب الجلالة السلطان (العثماني) والثلاثماية مليون مسلم المنتشرين في الأرض، والذين يعتبرونه خليفتهم، بأن قيصر ألمانيا هو صديقهم في كل الأوقات".¹¹ أما المناسبة الأخيرة، فكانت تلك الرسالة التي بعث بها الإمبراطور من دمشق إلى قريبه نيقولا، قيصر روسيا، وجاء فيه ما يلي: "كان شعوري الشخصي عند مغادرتي المدينة المقدسة (القدس) مليئاً بالخجل تجاه المسلمين. فلو كنت قدمت إلى هنا دون دين، لكنت تحولت بالتأكيد إلى الإسلام... أعود إلى بلادي بخيبة أمل كبيرة وباقتناع راسخ بأن قبر المسيح المقدس ليس في مأمن تحت إشراف أية من الكنائس هناك - هذه الكنائس، بمظهرها وزخارفها، لا يمكن إلا أن تقارن سلباً ببساطة ومهابة وعظمة مسجد عمر".¹² ومن أن المفترض أن يكون وليم الثاني قد عبر موقفه هذا أمام أشخاص آخرين.

نحن نعتقد أن فكرة التحول إلى الإسلام لم تكن جدية عند إمبراطور ألمانيا، لأن الإنسان لا يغير دينه بهذه البساطة. كما أن إشهار إسلامه ما كان سيمر دون موجة استياء عارمة في ألمانيا. فالإسلام، كان بنظر الدوائر التبشيرية الألمانية أكثر الأعداء الذين يتوجب محاربتهم.¹³ إن ما جعل الإمبراطور يقدم على ذلك هو مناخ الاستقبال الحار الذي لقيه من السكان المسلمين في بلاد الشام،¹⁴ واستيائه من الخلافات بين الكنائس المسيحية حول الأراضي المقدسة والتي أعطت صورة سيئة لكثير من المسيحيين الذين زاروا بيت المقدس. وقد تسببت إحدى مراحل النزاعات هذه باندلاع حرب القرم في منتصف القرن التاسع عشر.

سجل خطاب دمشق علامة فارقة على سياسة ألمانيا الإسلامية. فأشاع جواً إسلامياً عاماً بأن إمبراطور ألمانيا هو المدافع الحقيقي عن الدين الإسلامي والمسلمين.¹⁵ وذكر المستشرق أوبنهايم في رسالة له من دمشق أن الزيارة والخطاب وقبلهما موقف ألمانيا من الحرب بين الدولة العثمانية واليونان "تركها انطباعاً عميقاً" على السكان المسلمين السوريين.¹⁶ وبعد شهر عدة

¹⁰ نقلاً عن: ثمرات الفنون، عدد 1206، تاريخ 14 تشرين الثاني 1898، ص 2.

¹¹ عبد الرؤوف سنو، رحلة إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني إلى الشرق في مرآة الصحافة العربية المعاصرة، في:

تاريخ العرب والعالم، 180 (1999)، ص 75 - 77.

¹² Hendrik Budde/Andreas Nachama ed. Die Reise nach Jerusalem (Eine Ausstellung der 9. Jüdischen Kulturtag in der Großen Orangerie, Schloß Charlottenburg, Berlin), Berlin 1995, p. 309f.

أشكر في هذه المناسبة أستاذي البروفسور فريتز شتبات (Fritz Steppat) الذي زودني بنص هذه الرسالة.

¹³ C. Snouck Hurgronje, "The Holy War made in Germany", in: **Verspreide Geschriften**, vol. III, p. 277.

¹⁴ مما قاله الإمبراطور حول ما لقيه من استقبال في دمشق: "لو يأتي شعبي المؤلف من أربعين مليوناً من الألمان

إلى هذه البلاد، فيتعلمون إذ ذاك كيف تُستقبل الملوك في الشرق". أنظر: Abdel-Raouf Sinno, "The Emperor's Visit to the East as Reflected in Contemporary Arabic Journalism" in: Helene Sader/Thomas Scheffler/Angelika Neuwirth, eds. **Baalbek: Image and Monument 1898-1998**, Beirut 1998, p. 130; وقارن بالترجمة العربية للمقال نفسه، في: **تاريخ العرب والعالم** (بيروت) 180 (1999)،

ص 74 - 75.

¹⁵ M. de Lanesson, Mussman Fanatism, in: **The Tribune** 12. Juli 1906.

¹⁶ PAAA, OG 9, Nr. 1, Band 3, Oppenheim an Hohenlohe-Schillingsfürst, Nr. 75, A

OG 9, Nr. 1, Band 4, Oppenheim an Hohenlohe- 11413, Damaskus 5. Sept. 1899

على انتهاء الزيارة، علق فريديريك نويمن بالقول: "لا مصالحة مع بريطانيا، وإنما سياسة قومية"¹⁷.

بدأت سياسة وليم الثاني الإسلامية تجاه الدولة العثمانية تحقق ثمارها بحصول ألمانيا عام 1903 على امتياز بناء سكة حديد بغداد التي كان مقرراً أن تصل إلى البصرة أو الكويت لتهدد مواصلات بريطانيا الاستراتيجية. وفي مشروع خط حديد الحجاز (1900-1908)، الذي أشرف عليه مهندسون ألمان، سعت ألمانيا أيضاً إلى تحقيق أهداف استراتيجية مماثلة ضد بريطانيا، وذلك من خلال مد الخط فيما بعد ليصل إلى اليمن، أي عند مدخل البحر الأحمر. ومع ذلك، لم يتمكن كلا الخطين من إلحاق الأذى بالمصالح البريطانية في الخليج، أو البحر الأحمر (=قناة السويس) لأسباب لا مجال لذكرها هنا.

(2) ظروف إرسال الخطاب إلى إمبراطور ألمانيا

خلال عام 1905 وقعت حادثتان كانتا وراء إرسال الشماخي وابن إسماعيل خطابهما المشار إليه إلى وليم الثاني:

- أ- زيارة إمبراطور ألمانيا إلى طنجة مطلع أيار 1905 وإلقائه خطابه الشهير هناك؛
- ب- انتصار اليابان على روسيا في خريف عام 1905.

أ - بعد توقيع بريطانيا وفرنسا على الاتفاق الودي عام 1904 الذي قضى بتسوية الدولتين خلافتهما الاستعمارية وتوحيد جهودهما ضد ألمانيا، رأت برلين أن تقوم بجس فعالية هذا التحالف عبر مضائق فرنسا في منطقة نفوذها في المغرب الأقصى، وبريطانيا في سياستها الإسلامية.¹⁸ ومن هنا، قام إمبراطور ألمانيا بزيارته الشهيرة إلى المغرب الأقصى. وفي طنجة، ألقى خطاباً كرر فيه مجدداً اعترافه بخلافة السلطان عبد الحميد على العالم الإسلامي، وأكد في الوقت نفسه لسلطان المغرب ضمان ألمانيا لاستقلال بلاده ضد المخططات الاستعمارية. ومن جهته، بعث عبد الحميد الثاني إلى سلطان المغرب يطلب إليه الاتكال على ما يدعيه الإمبراطور من حماية ألمانيا للعالم الإسلامي.¹⁹

تسبب وجود عاهل ألمانيا في عقر دار النفوذ الفرنسي في شمال إفريقيا بحدوث أزمة مغربية، ليس حول ألمانيا في المغرب بعد الوفاق الودي فحسب، وإنما حول مركزها في العالم.²⁰ وفي خريف العام نفسه، خطت ألمانيا خطوة أخرى لكسب ود العالم الإسلامي، عندما

Schillingsfürst, Nr. 92, A 7112, Kairo 30. Mai 1900, 1 Anlage.

Fr. Naumann, "Asia" –Athen, Konstantinopel, Naalbek, Damaskus, Nazaret, Jerusalem, Kairo, Neapel, 2.Ed., Berlin 1899, p. 145.

¹⁸ محمد خير فارس، المسألة المغربية 1900-1912، القاهرة 1961، ص 288-289، 292-294.

¹⁹ Documents Diplomatique Francaise, Ser, 2, col. 9, 1.2, Boppe a Rouvier, no. 312, Pera 27. Feb. 1906.

²⁰ Schöllgen, op. cit., p. 174.

رفضت المشاركة في مظاهرة بحرية للدول الكبرى أمام الدردنيل تزعمتها بريطانيا بهدف إجبار الباب العالي على تنفيذ إصلاحات في مقدونيا فُرضت من قبلها.²¹

ب- منذ أن بدأ عصر الإصلاحات عام 1868، أخذت اليابان تقوم بمحاولات لتطوير علاقاتها مع الدولة العثمانية عبر زيارات لشخصيات يابانية إلى استانبول أو للحصول منها على امتيازات شبيهة بتلك التي سبق للدول الأوروبية أن نالتها من الباب العالي. لكن الدولة العثمانية رفضت الاستجابة للرغبة اليابانية خوفاً من أن يسبب منح امتيازات جديدة المزيد من الضرر باقتصاد البلاد واستقلالها السياسي. وفي المقابل، حافظت الدولتان على علاقات طبيعية مع بعضهما بعضاً، وذلك للتخفيف من الضغط الروسي عليهما: الدولة العثمانية في ولاياتها الآسيوية واليابان في الشرق الأقصى. فزار الأمير كوماتسو استانبول عام 1887، فيما زارت السفينة الحربية العثمانية "أرطغرل" المرافية اليابانية خلال عام 1889.²² وعندما كانت اليابان تتحضر للحرب ضد الصين عام 1895، أدركت أهمية الجامعة الإسلامية، فأوفدت مبعوثاً إلى استانبول للحصول على دعم السلطان.²³ وعشية الحرب مع روسيا عام 1904، نشطت اليابان من اتصالاتها بالدولة العثمانية بهدف لفت انتباه الروس عن الجبهة في شرق آسيا إلى حدودهم مع الدولة العثمانية، أو دفع الباب العالي لإقفال الممرات العثمانية أمام السفن الحربية الروسية.²⁴ كما حافظت اليابان على سياسة التقارب مع الدولة العثمانية في أعقاب انتصارها على روسيا، إذ ذكرت الصحف بأن اليابان تعتزم بموجب تحالفها مع بريطانيا لعام 1902 ضمان ممتلكات الدولة العثمانية الآسيوية. كما استطع ضباط يابانيون عام 1906 المواقع العثمانية في تركيا الأوروبية، وتحركون في العام التالي في مناطق شمال العراق وسط قلق روسي.²⁵

سبب انتصار اليابان عام 1905/1904، كدولة آسيوية وبوذية، على روسيا الأوروبية المسيحية وكأكبر عدو للإسلام آنذاك، "قشعريرة صحوة" في العالم الإسلامي،²⁶ وأدى إلى مناقشات شعبية وفكرية حول التقدم والتخلف، وحول الغرب والشرق، وحول أوروبا وآسيا، والمسيحية والإسلام. فاعتبر المسلمون أن من يقف خلف هذا الانتصار إنما هو مجتمع استطاع أن يتحول إلى دولة صناعية في خلال عقود قليلة، دون أن يتخلى مع ذلك عن تقاليده الشرقية وعقيدته.

²¹ Caesar Farah, "The Islamic Caliphate and the Great Powers:1904-1914", in: **Studies on Turkish –Arab Relations Annual**, 2(1987), p. 44.

²² Kreiser, Vom Untergang der *Ertoghul* bis zur Mission Abdurrashid Efendis-Die türkisch-

"japanischen Beziehungen zwischen 1890 und 1915", in : Josef Kreiner Ed. **Japan und Mittelmächte**, Bonn 1986, pp. 236 –240.

وما لبثت هذه السفينة أن غرقت في أيلول 1889 أثناء عودتها إلى ديارها، وأمكن إنقاذ 61 من بحارتها.

²³ PAAA, OG 9, Nr. 1, Band 3, Oppenheim an Hohenlohe-Schillingsfürst, Nr. 45, A 8657, 5. Juli 1897.

²⁴ Klaus Kreiser, Vom Untergang der *Ertoghul*, p. 45.

²⁵ Klaus Kreiser, Vom Untergang der *Ertoghul*, pp, 240-243, 244.

²⁶ F. Farjenel, Le japon et l'Islam, in: **Revue du Monde Musulman**, 1(1907), p. 101.

بعدهما سبب انتصار اليابان على روسيا ردود فعل واسعة في العالم الإسلامي عموماً والمشرق العثماني خصوصاً، أصبحت أسلمة هؤلاء اليابانيين البوذيين وإعطائهم **"الدين الصحيح"** حديث الساعة لدى الكثيرين من المسلمين والمفكرين. ففي عام 1905، أجرت لجنة الأديان اليابانية اتصالات مع أحد الدعاة المسلمين في الصين، سرعان ما تناقلت النبأ الصحف الإسلامية. فقام بعض العلماء المسلمين بزيارة اليابان ودعوة شعبها إلى الإسلام.²⁷ وبمناسبة عقد مؤتمر للأديان في طوكيو عام 1906، سرت شائعات بأن اليابان تسعى لاعتناق الدين الحنيف، أي الإسلام. وحتى الحرب العالمية الأولى، عكف عدد لا بأس به من رجال الدين المسلمين على زيارة اليابان بهدف أسلمة هؤلاء المتفوقين في النواحي الاجتماعية والاقتصادية - كل هذا من أجل استقواء الإسلام بالأمة الجديدة وجعله أكثر فعالية في التصدي للغرب المسيحي المتفوق.

3) رسالة الشماخي وابن إسماعيل: دعوة إمبراطور ألمانيا وميكادو اليابان إلى الإسلام

في إطار الأحداث التي أتينا على ذكرها: سياسة ألمانيا الإسلامية وخطابا ولیم الثاني في دمشق وطنجة وانتصار اليابان على روسيا، تلقى عاهل ألمانيا رسالة تدعوه إلى الإسلام، صاغها كل من السيد محمد قاسم بن سعيد الشماخي العامري وسيد بن مصطفى بن إسماعيل العمري الفارضي. وتاريخ هذه المراسلة هو 18 كانون الأول 1905.

في الواقع، نحن لا نملك معلومات وافية حول شخصية الداعيتين. فكتب الأعلام كحالة والزركلي، لا تقدم أية معلومات عن أي منهما، باستثناء ما ذكره الزركلي حول الأصل العُماني لعائلة الشماخي. وبعد الاستقصاء عن الشخصين، تبين لنا أن قاسم الشماخي كان رجل دين أباضي من عُمان، استقر في القاهرة، ومنها زار أقطاراً عربية وإسلامية داعياً للجامعة الإسلامية وللسلطان عبد الحميد كخليفة. وبعد إرسال الخطاب المذكور إلى إمبراطور ألمانيا، استدعاه السلطان العثماني إلى استانبول وأكرمه.²⁸ أما مصطفى بن إسماعيل، فكان على المذهب السني من قبيلة سادات المتفرعة من قريش. عاش في القاهرة وتغرب إلى الشماخي وتحول إلى المذهب الأباضي تحت تأثيره.²⁹ وفي عام 1904، أسس الاثنان في القاهرة جريدة **"نبراس المشاركة والمغاربة"**³⁰ التي كانت تصدر ثلاث مرات في الشهر وغايتها نشر الدعوة للجامعة الإسلامية، وخاصة في عُمان وباقي الجزيرة العربية.

منذ عام 1900، كان صاحباً النبراس يكتبان السلطان عبد الحميد ويذكرانه بمسؤولياته كخليفة وسلطان وضرورة عدم ترك البلدان الإسلامية فريسة للأطماع الأجنبية. كما كانا يحذرانه من حاشيته والمنافقين حوله،³¹ ويحثانه على إنشاء مجلس شورى إسلامي (مجلس الشورى

²⁷ مجلة "النهار"، مجلد 8، ج 18، 1905/1323، ص 706-707.

²⁸ PAAA, OG 9, Bd. 2, Tucher an Bülow, , Nr. 10, A 3074, La Valette 5. Feb. 1906.

²⁹ F.O. 424/212, India Office to Foreign Office, No. 44, March 25, 1907, inclosure 2, in No. 44,

Major Grey to Major Cox, Muscat, confidential, January 21, 1907.

³⁰ أشكر في هذه المناسبة صديقي الدكتور وجيه عتيق، الأستاذ في قسم التاريخ بجامعة القاهرة على تزويدي بكامل أعداد هذه الجريدة.

³¹ نبراس المشاركة والمغاربة، السنة الأولى، عدد 9، تاريخ 31 كانون الأول 1904، ص 78.

الإسلامي العام) مقره الأستانة، ويضم الحكام والسلاطين المسلمين لإدارة أحوال المسلمين كخطوة أولى نحو إصلاح المجتمعات الإسلامية.³² كما طالبها السلطان عبد الحميد بتقوية علاقات بلاده مع البلدان الإسلامية،³³ وحذراه من أطماع ألمانيا في فلسطين ومن صهيبتها بدعم بريطاني.³⁴

بالإضافة إلى ذلك، دعت الجريدة المسلمين وسلاطينهم وحكامهم للعودة إلى الإسلام الصحيح والتكاتف والتضامن حول خلافة السلطان عبد الحميد الثاني والعمل على حمايتها وصونها والغيرة عليها إذا ما أرادوا مضارعة أعداء الإسلام ووقف اختراق المجتمع الإسلامي وتغريبه والحد من فساد رؤساء الأمة الإسلامية ووجهائها.³⁵ واعتبرت النبراس أن المسلمين كانوا في خمول وعجز تجاه مصيرهم بعد هجوم الاستعمار عليهم إلى أن انتصرت اليابان على روسيا. ويظهر تأثير هذا الانتصار على النبراس حين تقول: **"فسلط الله بعدله اليابان على عدوهم المعتدي (روسيا) ينفقون عليه من موارد العذاب المر ما قد أدأقه للمسلمين ويكيلون له بالكيل الوافي الذي كاله لهم حتى خفت موازين هذا العدو وثقلت موازين اليابان وهكذا قد نطق لسان العدل بأن المظلوم منصور ولو كان مشركاً والمعتدي مخذول مقهور ولو كان مسلماً"**³⁶. واعتبرت الصحيفة أن الانتصار سبب **"يقظة"** إسلامية أعاد المسلمين عن طريق الغفلة، وسوف يشكل حماية لبقية الشرق الأقصى من الاستعمار.³⁷ وفندت النبراس رأي المعارضين على فرحة المسلمين بانتصار اليابان الوثنية. فاعتبرت أن وثنية اليابان غير الوثنيات الأخرى، وأن الوثنيات تختلف من عصر إلى آخر، حيث ليس هناك ما يدل على إساءة اليابان للإسلام والكيد له كما فعل المسيحيون أهل الكتاب الذين طالما غدروا بالإسلام واضطهدوا المسلمين في مستعمراتهم. إضافة إلى ذلك، رأت الصحيفة أن اليابانيين أقرب ميلاً إلى الإسلام من أهل الكتاب. فبررت ذلك بإسراعهم لإنقاذ البحارة الذين سلموا من حادثة غرق الباخرة العثمانية أرطغرل وإعادتهم إلى الأستانة مكرمين.³⁸

كانت أعداد من النبراس تصل إلى سلطان مسقط وحكام الجزيرة العربية وسلطان زنجبار وشاه فارس وأمير الأفغان وأمير حيد آباد وسلطان المغرب، حيث يجري حثهم على التضامن ومبايعة عبد الحميد بالخلافة لمناهضة التدخل المسيحيين في شؤون الإسلام.³⁹ وفي عام 1906 توقفت الصحيفة عن الصدور، بعدما فشلت في الحصول على دعم مالي من أمراء في الشارقة وأبو ظبي.⁴⁰ لكنها، سببت من ناحية أخرى، قلق السلطات البريطانية، حيث كانت النبراس تحت سلطان

³² نبراس المشاركة والمغربية، السنة الأولى، ملحق العدد العاشر، غرة محرم 1324، ص 128.

³³ نبراس المشاركة والمغربية، السنة الأولى عدد4، 28 أيلول 1904، ص 27-32.

³⁴ نبراس المشاركة والمغربية، السنة الأولى، عدد 9، تاريخ 31 كانون الأول 1904، ص 72-73، 79.

³⁵ نبراس المشاركة والمغربية، السنة الأولى، عدد 7، 26 تشرين الأول 1904، ص 63، 66-68؛ عدد 9،

31 كانون الأول

1904، ص 74.

³⁶ نبراس المشاركة والمغربية، السنة الأولى، عدد 5، 6 تشرين الأول 1904، ص 39-40.

³⁷ نبراس المشاركة والمغربية، السنة الأولى، عدد 6، تاريخ 16 تشرين الأول 1904، ص 46.

³⁸ نبراس المشاركة والمغربية، السنة الأولى، عدد 5، تاريخ 6 تشرين الأول 1904، ص 38-40. سيأتي

الحديث تحت حول السفينة

أرطغرل.

³⁹ نبراس المشاركة والمغربية، السنة الأولى، ملحق العدد العاشر، غرة محرم 1324، ص 128-135.

⁴⁰ F.O. 424/212, India Office to Foreign Office, no, 44, March 25, 1907, inclosure 1,2.

فيصل، سلطان مسقط، على نشر أفكار الجامعة الإسلامية بين أمراء نجد والمحميات والتضافر خلف الدولة العثمانية، دوت أن يمسه ذلك استقلالهم الشخصي.⁴¹

نعود إلى الرسالة، حيث يتبين لنا بعد ديباجتها أن الشماخي وابن إسماعيل سبق وأرسلا إلى وليم الثاني خطاباً لم يتلقيا رداً عليه. بعد ذلك، نقرأ عن علاقة ولاء بين ألمانيا والسلطان العثماني لقيت ترحيباً من جانب المسلمين المنتشرين في العالم، وأن التاريخ سوف يخلد ذكرى هذه العلاقة التي تربط بين الإمبراطور والسلطان. فيقول الداعيتان:

"... على أننا مع ذلك يا جناب الأمبراطور الفخيم قد آتسنا من أنفسنا اليوم اندفاعاً إلى مخاطبتكم استئنافاً لتعريفكم بأن خطة ولائكم مع السيد المطاع "عبد الحميد بن عبد المجيد" قد أدخلت على المسلمين كافة سروراً وجوراً لا مزيد عليهما وبذلك علمنا وعلم المسلمون في المشارق والمغرب أنكم قد وفيتم بحق العهد الذي يستحق أجزل الشكر وأعظم الثناء الذي يخلد ذكره في صفحات الدهر ومحفوظات الأيام".

ثم يطلب الشماخي وابن إسماعيل من الإمبراطور الاستمرار على نهج الولاء لخليفة المسلمين لما سينعكس موقفه هذا من فوائد عليه وعلى شعبه دون بقية الدول الغربية:

"فالله يا جناب الأمبراطور في المثابرة والاستمرار والثبات على هذا المنهج الولائي وهذا الإخلاص لمركز الخلافة ومصالحة المسلمين لما في ذلك لكم ولشعبكم من وافر الفوائد المادية والمعنوية والفخر الدائم دون أمم الغرب وسلطنته أجمع".

ثم يبلغ الداعيتان الإمبراطور أن المسلمين قد تأكّدوا من صداقته وولائه للخليفة العثماني، وذلك من خلال عدم مشاركة بلاده في مظاهرة الأساطيل الغربية أمام الممرات العثمانية عام 1905. ثم يحثانه على استمالة ميكادو اليابان للتحالف مع ألمانيا والدولة العثمانية، وذلك بعدما ثبت ميل اليابانيين لاعتناق الإسلام. ورأى الداعيتان أخيراً أن تتحول ألمانيا إلى الإسلام، بحيث يتكون منها ومن اليابان والدولة العثمانية أمة إسلامية واحدة تعتنق الدين الإسلامي ويكون النصر حليفها:

"أما وقد تأكدت روابط هذا العهد بينكم وبين المسلمين وخليفتهم فمن أجمع وسائل الوفاء بشرائط هذا العهد تلك الآثار الجميلة التي ظهرت منكم في حق الخلافة وصالح المسلمين خصوصاً في هذه الأيام التي علت فيها بصائر ملوك الغرب بمظاهرة العداء أمام الدردنيل أن تقوموا جنابكم بما لكم من مزايا الاقتدار والحدق الباهر في ضروب السياسة باستمالة أمة "اليابان" إلى التحالف معكم ومع السيد المطاع "عبد الحميد بن عبد المجيد" ومن حيث أنه قد ثبت ميلهم إلى اعتناق الدين الإسلامي الحنيف. فهذه هي الحركة التي تمكنكم من التمازج معهم وجذبهم إلى تحقيق ما صبوا إليه. خصوصاً وقد فشى عن جنابكم صدق العهد وسلامة القصد لدى أمم المسلمين في الشرق والغرب. ثم على جناب الأمبراطور بعد ذلك أن يراجع ما كتبناه إلى جنابه في معروضاتنا السالفة عن وجوب استعمال النظر وتحكيم العقل في مرشد الدين الإسلامي ومكارم تنبيهاته فيتكون من جناب الأمبراطور وأتمته وميكادو اليابان وأتمته والخليفة "عبد الحميد، وأمه أمة واحدة يوحدون الله ولا يشركون به شيئاً يأخذون الدين النقي والعلم الصحيح الذي تتصحح به قضايا العقول وتظهرون به سادة أهل الأرض أجمع فينحاز لكم النصر والظفر والعز والفخر في هذه العاجلة والراحة والنعيم الدائم في تلك الأجلة. وهذا ما علينا من حق جناب الأمبراطور قد بلغناه إليه قياماً بالأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر الذي مدح الله تعالى أمة أحمد ..."

وختم الداعيتان الرسالة بالتشديد على ضرورة إجابة الإمبراطور على خطابهما كي تزول الشكوك التي ساورتها بشأن عدم رده على رسالتها الأولى إليه. وفي حاشية الرسالة، يخبر الداعيتان الإمبراطور بأنهما مستمران في دعوة ميكادو اليابان إلى الإسلام.

4 رسالة الشماخي وابن إسماعيل في إطار الفكر الإسلامي المعاصر

يُظهر فحوى الرسالة درجة عالية من السذاجة والافتقار إلى الواقعية السياسية. فبدون أي إدراك ووعي، يخلط الداعيتان بين السياسة الواقعية واللغة الدبلوماسية، معتبرين أن التقارب السياسي بين كل من ألمانيا والدولة العثمانية من جهة، واليابان والدولة العثمانية من جهة أخرى، ومصالحهما في السلطنة، هي دليل على ميلهما نحو الإسلام. وبدلاً من أن يدعوان المسلمين إلى تعلم أسرار التقدم من الأمتين الألمانية واليابانية، أرادا اختصار الطريق وأسلمتهما بهدف تقوية الإسلام السياسي تجاه الغرب المسيحي.

من المؤكد أن الشماخي وابن إسماعيل كانا تحت تأثير ما أصاب الإسلام من انهيار داخلي خلال العصور وما تعرضت إليه البلدان الإسلامية قاطبة من هجوم الاستعمار عبر الاحتلال المباشر أو التغلغل الاقتصادي والمالي وخلخلة بناها الثقافية والاجتماعية. وبصفتها داعيتان إسلاميان، تأثرا بدعوة التضامن الإسلامي العام وتقوية الإسلام السياسي اللذين أشاعتها إيديولوجية الجامعة الإسلامية السياسية التي وقف خلفها السلطان عبد الحميد الثاني لتقوية سلطته على "القوميات الإسلامية" في الدولة العثمانية واستخدامها كسلاح لتهديد الاستعمار الأوروبي في مناطق استعمارها على الشعوب الإسلامية. ومن هنا، فإن اللغة التي خاطب بها عاهل ألمانيا المسلمين في العالم بأنه صديقهم وحليف خليفهم السلطان العثماني، وهزيمة روسيا كألد عدو للإسلام على يد اليابان، كانتا ما أراد الشماخي وابن إسماعيل أن يسمعا، وهي العثور على الوسائل التي تكبح خطر الاستعمار عن البلدان الإسلامية وتكفل في الوقت نفسه عودة الإسلام قوياً منيعاً.

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شعر المسلمون بضعفهم وبالمخاطر المحدقة بهم. فجاء إمبراطور ألمانيا يدق على هذا الوتر الحساس، وعلى مسألة نقل الإسلام من حالة الضعف إلى حالة القوة، وطرح نفسه المدافع عنه، إلى درجة التظاهر باعتناقه. وفي المقابل، عرض عاهل ألمانيا كل من بريطانيا وفرنسا كعدوتين للمسلمين. لقد كره المسلمون بالفعل بريطانيا وفرنسا بسبب سياستهما الاستعمارية تجاه العالم الإسلامي، فجاء الإمبراطور ليعلن عن تحالفه مع الإسلام ومع السلطان عبد الحميد كخليفة على المسلمين ضد هاتين الدولتين. كما مقت المسلمون روسيا بسبب سياستها في قضم الممتلكات العثمانية وإذلالها للشعوب الإسلامية في مناطق احتلالها وسياستها التقليدية المعادية للسلطنة العثمانية. فجاءت اليابان، ولم تلحق الهزيمة بروسيا كألد عدو للإسلام فحسب،⁴² وإنما لتعلن عن استعدادها لضمان ممتلكات الدولة العثمانية الأسيوية، أي المناطق العثمانية التي كانت تخضعها روسيا منذ الحرب الروسية - العثمانية عام 1877-
1878.⁴³

Lothrop Stoddard, The New World of Islam, New York 1921, p. 71. 42

Kreiser, Vom Untergang des Ertoghru, op. cit., pp. 242-243. 43

انطلاقاً من تلك الأحداث، عقد الشماخي وابن إسماعيل الأمل على أسلمة الألمان واليابانيين لأجل تقوية الإسلام السياسي تجاه المسيحية المتمثلة بالغرب. وفي هذه الناحية، استبعدا الأسلمة عبر الدعاة، وأرادا اختصار الطريق بدعوة الإمبراطورين في كلا الدولتين إلى الإسلام للوصول إلى أسلمة أميئتهما، استناداً إلى المثل القائل **"الناس على دين ملوكهم"**. بمعنى آخر، أرادا تقوية الإسلام من خلال الحصول على مساعدة شركاء لم يكنوا بمسلمين.

هل يمكن اعتبار هذه الأفكار التي ساورت الداعيتان نموذجاً للفكر الإسلامي المعاصر في تلك المرحلة، في وقت كان المفكرون المصلحون يطرحون التساؤلات حول تقدم الغرب وتفوقه وأسبابه وتخلّف عالم الإسلام ويدعون إلى التعلم من الغرب والنهوض بالمجتمعات الإسلامية بروح إسلامية.

تدل الأدبيات المعاصرة على أن مثقفين مسلمين من كافة الاتجاهات تأثروا بالشعار الذي طرحته اليابان: **"التكنولوجيا الغربية والروح اليابانية"**⁴⁴ ومن تحقيق تلك الدولة نهضتها السريعة في المجالات الاجتماعية والاقتصادية وتصفيتهما للإقطاع وإقامة الدولة القومية المركزية وإصدار الدستور واعتماد التعددية الحزبية والخروج من عزلتها والمحافظة في الوقت نفسه على استقلالها.⁴⁵ جاء التعبير عن هذه المتغيرات الداخلية بانتصار اليابان على الصين عام 1895 وروسيا في 1905/1904 وتحولها إلى إحدى الإمبرياليات العالمية.⁴⁶

منذ ذلك الحين، تحولت نهضة الشرق عبر اليابان إلى مادة للنقاش اليومي في الصحافة العربية والإسلامية والرأي العام. أدرك المسلمون أن الغرب المسيحي لا يستهدف الإسلام في الشرق وحده، وإنما الشرق كله بشعوبه غير الإسلامية في الهند والصين واليابان. ومن هنا، انبرى بعض المفكرين المسلمين للتأكيد على الثقافة الشرقية لجميع شعوب الشرق وعلى المصير المشترك والتهديد المشترك من قبل الغرب.⁴⁷

بعدما سقط معظم في البلدان الإسلامية تحت حكم الاستعمار في النصف الثاني من القرن التاسع وفشلت ثوراتها الوطنية،⁴⁸ أعطى انتصار اليابان على روسيا دفعة مزدوجة من الأمل والإلهام. فاستلهمت منه الحركات الوطنية نهجاً جديداً للنضال، مفاده أن الشرق لا يزال ينبض

⁴⁴ جاسم محمد عبد الغني، "العرب وتجربة التحديث اليابانية"، في: **المستقبل العربي** 119 (1989)، ص 27.

⁴⁵ رعوف عباس حامد، "الأصول الثقافية للنهضة اليابانية الحديثة 1854-1904"، في: **المجلة التاريخية المصرية**، 23 (1976)، ص 255.

⁴⁶ مسعود ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية. تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة **"عالم المعرفة"**، عدد 252، الكويت 1999، ص 181-183.

⁴⁷ Stoddard, The World of Islam, p. 71.

⁴⁸ قضاء بريطانيا على دولة المغول في الهند عام 1857، وفرض سيطرتها كلياً على سياسة أفغانستان الخارجية عام 1879، وتمدد روسيا في وسط آسيا على حساب الخانات الإسلامية في تركستان الغربية، وقضاء الصين على تطلعات الأقلية الإسلامية للاستقلال في تركستان الشرقية، وكذلك إجهاز هولندا على الثورات الإسلامية في الأرخيبيل الأندونيسي، وعلى ثورة أنشه في سومطرة عام 1874. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كان حوالي 180 مليوناً إلى 185 مليوناً من المسلمين يخضعون للاستعمار من أصل 230 مليوناً إلى 235 مليوناً يمثلون مجموع المسلمين في العالم. أنظر:

Victor Berard, Le Sultan, L'Islam et les Puissances, Paris 1907, p. 36.

بالحياة والفاعلية وإنه بمقدور دولة آسيوية شرقية أن تنهض من كبوتها وتلحق الهزيمة بدولة أوروبية كبيرة. كما شكل هذا الانتصار حافزاً للفكر الإسلامي وصحوة إسلامية ومنطلقاً لدعوة هؤلاء البوذيين المتفوقين إلى الإسلام. فأصبحت أسلمة اليابان "حلم يقظة" للمسلمين من بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا إلى فارس والهند والصين.⁴⁹ طرح البعض إمكانية أسلمة ميكادو اليابان ثم مبايعته بالخلافة وما يستتبع ذلك من تحول شعبه إلى الإسلام. واعتقد البعض الآخر بإمكانية تجهيز الدعوات "ليأتوا البيوت من أبوابها"، كما فعل الدعاة المسلمون الذين هبطوا في اليابان. وفي كل هذه الحالات، كان الباعث الرئيسي لهذه الدعوة هو "الاعتزاز السياسي بهم (اليابانيين) والتمتع العاجل بحمايتهم"، كما جاء في بريد "المنار".⁵⁰

كما ذكرنا، تركت أحداث مطلع العقد الأول من القرن العشرين أثراً واضحاً على المفكرين المسلمين. ففي مقدمة كتاب له عن اليابان، قال محمد زكي، وهو أستاذ لغة وكاتب لدى الباب العالي "لو أن العثمانيين قاموا بجهد كالجهود غير المثمر الذي قامت به الإرساليات المسيحية مؤخراً لتبشير اليابانيين، لكان بإمكاننا اليوم ألا نرى 40 مليوناً من [خدام الحضارة] فحسب، بل أيضاً الكثير من الإخوة المؤمنين النشطين والأذكى الراقيين". وفي ختام شعر له، مدح الشاعر العثماني محمد عاكف (1873 - 1936) اليابانيين ودعا المسلمين إلى الاقتداء بهم في مجالات الأخلاق والمعاملة والفضيلة والأمانة والاقتصاد وعدم التهافت على كماليات الغرب. وبدلاً من أن يبقى الشاعر في نطاق التعلم من اليابانيين والإقتداء بهم، ينزلق فجأة وراء دعوتهم إلى الإسلام. فيعتبر أنهم يمارسون أركان الإسلام ولا ينقصهم سوى التوحيد. وينتقد العثمانيين على تفويتهم فرصة دعوة هؤلاء إلى الإسلام وتركهم فريسة للإرساليات التبشيرية المسيحية.⁵¹ ومن هنا، حث عاكف على نشر الدعوة الإسلامية بين اليابانيين، مشيراً إلى إمكانية الاستفادة منهم مادياً ومعنوياً. وأضاف قائلاً، إن المرء يستطيع أن يجد في اليابان "أثار الترقى" كذلك في فرنسا وبريطانيا.⁵²

إضافة إلى الدولة العثمانية، شكل انتصار اليابان على روسيا حافزاً للمسلمين في الهند والصين وروسيا للتطلع إلى الدولة الشرقية وأسلمتها كخشية خلاص من حكم الاستعمار. ففي كالكوته بالهند، دعت صحيفة "الحبل المتين" إلى قيام تحالف عسكري ياباني - فارسي موجه ضد الأطماع الروسية في شمال فارس. وصدر في دلهي عن الشيخ رحيم الدين كراس بالإنكليزية جرى توزيعه في اليابان يدعو أمتها إلى الإسلام. وفي أعقاب ذلك، أرسل فريق من العلماء الهنود المسلمين للدعوة الإسلامية في اليابان.⁵³ وفي الصين، كتب أحد العلماء المسلمين يقول إن على اليابان أن تتحول إلى الإسلام إذا ما أرادت أن تصبح دولة كبيرة تتمتع بنفوذ في آسيا.⁵⁴ وفي الأول من نيسان من عام 1905، كتب أحد الدعاة المسلمين في اليابان في جريدة شوكيما الصادرة في

⁴⁹ Farjanel. Le japon et l'Islam, *RMM* 1(1907), pp. 101-105.

⁵⁰ دعوة اليابان إلى الإسلام، في: *المنار*، مجلد 8، ج18، 1905/1323، ص 706-707.

⁵¹ كقتل المبشرين الأجانب والمنصرين اليابانيين وإغلاق كنائسهم ومدارسهم عامي 1597 و1637. أنظر:

صاهر، ص 139، 47.

بدأ تغلغل هذه الإرساليات في البلاد منذ منتصف القرن السادس عشر واستمرت في نشاطاتها متجاوزة ما تعرضت له من نكسات. وعند مطلع القرن السابع عشر، كان قد تم تبشير ما يزيد عن 300 ألف ياباني، صاهر، ص 42-43، 45-49.

⁵² Kreiser, Der japanische Sieg über Russland, op. cit., p. 209-210, 216.

⁵³ Farjanel, pp. 103f., 106-107.

⁵⁴ Stoddard, pp. 71-72.

نيكازاكي يقول إنه "ما رأي قوماً في العالم يدينون بغير الإسلام وعندهم مبادئ الفضيلة غير اليابانيين (الذين) تنقصهم كلمة التوحيد ... ليكونوا مسلمين عاملين".⁵⁵

وفي القرم، الخاضعة لروسيا، نشر الشاعر الوطني عبد الله توكاي (1896 - 1913) عام 1906 شعراً في صحيفة قازانية بعنوان "أين العلماء الذين يدعون اليابانيين إلى الإسلام". وفي السنة التالية، قام الداعية الشيخ عبد الرشيد إبراهيم برحلة إلى اليابان، وقدم وصفاً عنها في كتابه الذي صدر في جزأين قبيل الحرب العالمية الأولى وعنوانه "عالم الإسلام ونشر الدين الإسلامي في اليابان". وفي هذا الكتاب، لم يركز عبد الرشيد إبراهيم اهتمامه على دراسة أسباب تقدم اليابان، وإنما أسلمة عدة ملايين من شعبها. كما أصدر الرشيد مؤلفاً مشتركاً مع أحد اليابانيين المسلمين بعنوان "آسيا في خطر"، أكد فيه على اقتناعهما حول "اجتماع الشرقيين دون تردد تحت راية اليابان"، وأن آسيا هي مهد الحضارات. واتهم المؤلفان الدول الأوروبية المسيحية بالوقوف في وجه التقارب العثماني - الياباني من أجل إعاقة التقدم الإسلامي.⁵⁶

على عكس توكاي والرشيد ورجال الدين في الهند، الذين اعتبروا أن إعادة القوة والفعالية إلى "البنين" الإسلامي لا تكون إلا بأسلمة اليابانيين من خلال رجال الدعوة، أي العلماء أساساً، سخر التاريخ محمد فاتح عام 1904 من هذه الأقوال، معتبراً أن مصيبة العالم الإسلامي هي في جهل علمائه المسلمين وتفسيراتهم غير العصرية.⁵⁷ أما الصحافي والسياسي إسماعيل غاسبرنسكي (1851 - 1914)، صاحب جريدة "ترجمان"، فدعا إلى الجامعة الإسلامية، جامعاً بينها وبين اللغة والعرق للأتراك الروس، وتعاطف مع الدولة العثمانية وفارس.⁵⁸ ولم يرفض غاسبرنسكي في عام 1908 أسلمة اليابان فحسب، بل حتى اعتبار اليابان كنموذج لتحديث البلدان الإسلامية. ومما قاله في هذا الصدد:⁵⁹

"يُضرب التقدم الصناعي الياباني كمثال، ويقال لنا إنه يمكن أن يكون نموذجاً لنا. نحن لا نعتقد ذلك. إن الظروف الاجتماعية لليابان تختلف كلياً عنها في البلدان الإسلامية. اليابانيون ... هم عمال حرفيون منذ القدم ولا يمكن أن يُقارن بهم لا التتار ولا الأتراك ولا الإيرانيين. كما لا يمكن لليابانيين أن ينافسوا الإيطاليين والروس أو الإسبان. ولا يمكن القول أن اليابانيين فعلوا ذلك، وأن علينا أن نقلدهم. يجب الانتباه إلى الاختلاف بين تركي متمدن وبدوي من الجزيرة العربية هو كبير ومثله كمثله الاختلاف بين الفلاح التركي والفلاح الياباني. ولكي نحقق التقدم وتقوية البلدان الإسلامية بأسرع ما يمكن، نحتاج أولاً إلى الازدهار الزراعي".

وبدوره، رفض الأمير صباح الدين (1877-1948)، ابن شقيق السلطان عبد الحميد الثاني، مشروع أسلمة ألمانيا واليابان. كما اعتبر النموذج الياباني للإصلاح صعب التطبيق في بلاده، نظراً للاختلافات في الظروف الاجتماعية والاقتصادية بين اليابان والدولة العثمانية.⁶⁰

⁵⁵ نقلاً عن: ثمرات الفنون، عدد 1522، تاريخ 11 تموز / 24 تموز 1905، ص 5.

⁵⁶ Kreiser, Der Japanische Sieg, op. cit., pp. 231-233.

⁵⁷ Hans Kohn, Geschichte der nationalen Bewegung im Orient, Berlin 1928, pp. 92- 93.

⁵⁸ Pan Movement, in: *International Encyclopaedia of the Social Sciences*, 11(1968), p.

369; L. Bouvat, La presse Musulmane, in: *RMM* 1(1907), p.616f.

⁵⁹ نقلاً عن: Kreiser, ,Der japanischer Sieg, pf. 235-236.

⁶⁰ Kreiser, Der japanische Sieg, pp. 236-238, nos. 103, p. 238.

وفي البلاد العربية، لفتت نهضة اليابان الصحافة المحلية باكراً.⁶¹ وعندما حققت اليابان انتصارها العسكري على روسيا، انعكس ذلك في سيل من المؤلفات والكتابات راوحت ما بين الاستفادة من تجربة اليابان في التحديث وبين اختصار الطريق ونشر الدعوة الإسلامية بين شعوبها. أفرزت مجلة "المنازل" صفحات عديدة في زاوية "خواطر وآراء" لمناقشات مفتوحة لمسألة دعوة اليابان إلى الإسلام. وجاء في إحدى هذه المقالات ما يلي: "المعروف عن الأمة اليابانية أن العلم قد هدى فضلاءها وزعماءها إلى بطلان الوثنية التي درجوا عليها، وأنهم يطلبون باستعدادهم الجديد ديناً معقولاً يتفق مع المدنية والعلم زوال العمران، فهم يطلبون الإسلام".⁶² وعندما تقدم عدد من اليابانيين لدراسة الإسلام في جامعة الأزهر بمصر، سجلت حركة غير عادية في تلك المؤسسة. كان هناك أمل بأن تفتح هذه الخطوة الطريق نحو أسلمة الأمة اليابانية. وفي السنة نفسها، كتب الشيخ علي اليوسف في جريدة "المؤيد" المصرية يقول "إن يابان مسلمة سوف تغير السياسة الإسلامية كلياً".⁶³ وعندما وصل أول حاج ياباني إلى الحجاز عام 1909، حدثت مظاهرات في مكة، وقام الشريف حسين باستقباله وتوديعه شخصياً.⁶⁴

يبقى الأبرز في مجال أسلمة اليابان، تلك الرحلة التي قام بها علي أحمد الجرجاوي، صاحب جريدة الإرشاد القاهرية إلى تلك البلاد عام 1907 من أجل نشر الدعوة الإسلامية. وتبعاً لكتاب "الرحلة اليابانية" الذي ألفه، تمكن رجال الدعوة المسلمين خلال بضعة شهور من أسلمة نحو 12 ألف ياباني. ورأى الجرجاوي أن أسلمة اليابان "...يحدث انقلاباً هائلاً في كيان العالم الإسلامي بأجمعه ... ويعيد ماضي مجد هذا الدين" (الإسلامي). وأضاف يقول: "فإنما كانت أوروبا تتخوف من إسلام الأمة اليابانية، فما بالك إذا انضم إليها الصين والهند وتصبح قوة عظمى في الشرق الأقصى تقف أمام الغرب. لا شك أن أوروبا تكون في هذه الحالة كالريشة المعلقة في الفضاء من هذا الخطر الأصفر... خصوصاً وأنه في هذا العهد الأخير ظهر في عالم الوجود شيء يقال له الجامعة الإسلامية التي لا تخلو أفكار السياسة من الجولان في أمرها". ورأى الجرجاوي أن المسلم الغيور على دينه يود لأجل إعزاز الجامعة الإسلامية أن تعتنق اليابان الإسلام ويصبح الإسلام دينها الرسمي "ليعترف بها جانب الدين ويقوي بها شوكة المسلمين...". كما أكد أن أسلمة اليابان سوف يجعل منها ومن الدولة العثمانية الدولتين القابضتين على الشرق، الأولى على الشرق الأقصى والثانية على الشرق الأدنى. وشبه المؤلف الاستنهاض الذي سيحصل في عالم الإسلام فيما لو اعتنق الميكادو الإسلام، كما حصل في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي.⁶⁵

على عكس هذه المواقف الإسلامية التي كانت لا ترى الجانبين السياسي والدبلوماسي في العلاقات الدولية، فلا نجد في أعمال كبار المفكرين المسلمين أية إشارة إلى مشروع أسلمة اليابان. فجمال الأفغاني الذي عاصر النهضة اليابانية، ومحمد عبده الذي شهد انتصار اليابان على روسيا، لم يشرا كلاهما لا من قريب ولا من بعيد إلى مشروع لدعوة اليابان أو ألمانيا إلى الإسلام. بدلاً من ذلك، اعترفا بتقدم الغرب وتفوقه على عالم الإسلام، ودعا إلى الانفتاح على الحضارة الأوروبية

⁶¹ اليابان، في: الأهرام، عدد 6215، تاريخ 2 أيلول 1989، ص 1.

⁶² المنازل، مجلد 8، ج 22، 1323م 1905، ص 879-880.

⁶³ نقلاً عن: F. Farjenel, Le Japon et L'Islam, op. cit. p. 106.

⁶⁴ Kreiser, Vom Untergang der Ertoghurul, p. 243.

⁶⁵ علي أحمد الجرجاوي، الرحلة اليابانية، القاهرة 1325 / 1907، ص 118-119، 140-141، 159 -

والاستفادة من عطائها الملائم والضروري. لقد انصب همهما على يقظة الشرق كله على أساس وحدة العقيدة الإسلامية وتجديد الفكر الديني وتطويره بالعقل والعقلانية والتربية والتعليم.⁶⁶

وعلى الرغم من إعجابه بانتصار اليابان على روسيا وبانبعائها تحت حكم الميكادو، مترحماً على ما كانت عليه مصر وما آلت إليه، فلا يأتي الشاعر حافظ إبراهيم أبداً على مشروع أسلمة اليابان. فيكتفي بسرد الوقائع الحربية مشيداً بشجاعة اليابانيين، محاولاً أن يلفت انتباه المصريين إلى حب الوطن لدى اليابانيين والتربية الوطنية والقيادة السياسية (الميكادو) وإلى الدور الاجتماعي للمرأة اليابانية.⁶⁷ كان الإعجاب بالنهضة اليابانية هو ما جعل بدوره الشاعر فارس الخوري يتغنى أيضاً بنهضة اليابان.⁶⁸

فيما كان انتصار اليابان على روسيا حافظاً لرحلة الجرجاوي إلى اليابان ودعوة أهلها إلى الإسلام من أجل استقواء الإسلام بهذه الأمة المتفوقة، كان الانتصار نفسه هو وراء استلهم مصطفى كامل العبر الوطنية التي تنير طريق مصر للانتفاض على الاستعمار البريطاني. فأصدر في عام 1904 كتاباً بعنوان **"الشمس المشرقة"** تيمناً باليابان. حدد كامل سببين وراء ميل المصريين إلى اليابان: أولهما، انتصارها على روسيا التي طالما اعتدت على البلدان الإسلامية وعملت على تجزئة الدولة العثمانية، وثانيهما، أنها دولة شرقية نالت من القوة والارتقاء ما لم تتله دولة أخرى وتصدت للغرب بنجاح. وعندما تطرق إلى الدستورية والبرلمانية والتعددية الحزبية في اليابان، رأى كامل أن السلطة المطلقة والاستبداد هما وراء تخلف الشرق الإسلامي. ودون الدعوة إلى أسلمة اليابان، حث كامل المسلمين على الاقتداء بها كمثال ونموذج في مضمار الرقي والحضارة والوطنية وعدم الاستسلام لمقولة العجز عن مقاومة الاستعمار الغربي. قال كامل: **"ولقد كان البعض منا معاشر الشرقيين يقول ويلقن هذا القول للصغار والكبار أننا أمة انقضى دورها ودالت الأيام على مدنيّتها ومحا الزمان وجودها السياسي وليس في وسعها التسلح بمدنيّة أوروبا ومقاومتها لها، وأن لا بد لا لها من الاستسلام للغرب وقبول حكمه وسلطانه بلا عمل للحاضر وبغير جهاد في سبيل المستقبل. فقامت أمة اليابان مكذبة لهذه الدعوى نيابة عن الشرقيين أجمعين بأن طريق الارتقاء ميسر لقصاده وأن من جد وجد وكل من سار على الدرب وصل"**.⁶⁹

نتقل إلى سياسة ألمانيا الإسلامية مطلع القرن العشرين، فنرى أنها وجدت بدورها صدى إيجابياً واسعاً في العالم الإسلامي. تحدثت **"المؤيد"** عن تحالف بين وليم الثاني بصفته **"عظيم الغرب وعميد أوروبا"** وبين عبد الحميد بوصفه **"أمير المؤمنين كافة وعميد الإسلام كله"**.⁷⁰ ووصفت مجلة **"الجامعة الإسلامية"** وقوف ألمانيا في وجه مخططات الدول الكبرى لتقسيم الدولة العثمانية بأن التاريخ سيقول كلمته بأن إمبراطور ألمانيا **"..كبرهت نفسه الكبيرة العادلة أن تكون في جملة النسور الطامعة التي كانت تحوم بشراهة وجشع على بلاد الدولة العثمانية"**.⁷¹

⁶⁶ محمد عمارة، الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل، بيروت 1976، ص 54.

⁶⁷ ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين وآخرون، ج1، بيروت 1969، ص 7-14.

⁶⁸ "وقائع الحرب الروسية اليابانية" من نظم فارس الخوري، في: المنار، مجلد 10، ج1، 1907/1325، ص 56 - 61.

⁶⁹ مصطفى كامل، الشمس المشرقة، القاهرة 1904، ص 3-4، 11، 19-21.

⁷⁰ "زيارة القيصر الألماني لجلالة السلطان عبد الحميد الثاني" في: المؤيد، 24 أيلول 1898،

⁷¹ الإمبراطور غليوم والجامعة العثمانية والجامعة الإسلامية، في: الجامعة العثمانية، السنة الأولى، ج2، 1 نيسان 1899، ص 18

وفي بيروت ومدن عربية أخرى، وزعت دوائر فرنسية رسماً لإمبراطور ألمانيا وهو يتوسط الهلال الإسلامي، كإشارة إلى المركز الذي تسعى ألمانيا لاحتلاله في العالم الإسلامي وفرض الوصاية عليه. وكتب على خلف الرسم بالفرنسية "Reve d'Empereur- Future occupation de la Turquie par l'Allemagne"⁷². كما صرح عبد القادر الدنا، أحد أعيان بيروت وصاحب جريدة بيروت وعضو المجلس الاستشاري للمدينة "بأن المسلمين يرون في الإمبراطور الألماني صديقاً وحليفاً للأتراك والمسلمين عموماً"⁷³، حتى أن واعظ السفارة الألمانية في استانبول وصف العلاقات بين الألمان والمسلمين بأنها علاقة "أخوة"، مذكراً أن "المسلمين والألمان هم أخوة وأنه لا يوجد أي شك حول حقيقة هذا الاقتناع"⁷⁴.

لقد ساد بالفعل اعتقاد شعبي ورسمي حول إمكانية تحرير العالم الإسلامي من نفوذ الاستعمار بواسطة دعم ألمانيا. ففي مصر، أبلغ ممثل السلطان العثماني مختار باشا إلى المقيم الفرنسي في القاهرة أنه "بواسطة اثنا عشر فيلقاً متأهبين في سوريا يساندتهم الجيش الألماني، لن يكون صعباً علينا (أي العثمانيين) إخراجهم (البريطانيين) من هذا البلد" (مصر). وأضاف مختار باشا أن المصريين يتوقعون بأن تقدم ألمانيا والدولة العثمانية عما قريب على عمل مشترك ضد بريطانيا في مصر.⁷⁵

بعد قليل على اندلاع الحرب العالمية الأولى، سرت شائعات في إفريقيا حول اعتناق ألمانيا الإسلام، وأن الجيش الألماني الغازي لبلجيكا وفرنسا يقوم بإحراق الكنائس هناك.⁷⁶ وما لبثت صحيفة "أبائيل" الدمشقية أن استرجعت في 21 كانون الأول 1914 زيارة وليم الثاني لضريح صلاح الدين عام 1898. فتساءلت عما إذا كان قدوم إمبراطور ألمانيا إلى دمشق وتمجيده للسلطان صلاح الدين هو دليل على اقتناعه بالدين الإسلامي. فقالت:⁷⁷
"...فما الذي حيب إمبراطور ألمانيا ذلك الملك العظيم بهذا المجاهد الكبير بعد وفاته بمئات السنين؟؟ وما الذي حمله على القدوم إلى دمشق الفيحاء ومعه وزراؤه وأركان حربه لزيارة ضريح المقدس ووضع ذلك الإكليل عليه تذكراً لأقدمه وبسالته وشجاعته وقيامه على ملأ من الناس خطيباً يفصح عن أخلاقه ومزايه التي قلما اجتمعت في رجل بعد الأنبياء والمرسلين؟؟
هذه مسئلة حار فيها أهل النظر وتاه في تفسيرها أرباب الفكر وأصحاب العقول ولاسيما الصحافيون الذين يحبون الوقوف على حكمة كل شيء وسره... هل إنه (وليم الثاني) افتتن بعلمه العسكرية وفنونه الحربية

-19.

PAAA. OG 9, Bd. 3, Oppenheim an Bülow, Nr. 325, A 2970, Cairo 14. Feb. 1907. Anh. 1. Photographie

PAAA, Türkei 177, Schröder an Bülow, Bd. 40, A 6037, Berlin 18. März 1906.

PAAA, Deutschland 135, Die neue Türkei, vertraulich A 30128, 6 Aug. 1906.

F.O. 371/59, Cromer to Grey, secret, no. 146, secret, Cairo, Dec. 29. 1905.

F.O. 371/2227, Colonel Doughty-Wylie to Sir Edward Grey, F.O., Report no. 81, Addis Abeba,

20. Dec. 1914. أشكر في هذه الدكتور توماس تزيتلمن - برلين (Thomas Zietelmann) الذي وضع هذه الوثيقة بتصرفي.

⁷⁷ إمبراطور ألمانيا العظيم، في: أبائيل 21 كانون الأول 1914. عثرت على هذا المقال في أحد ملفات "الأرشيف

السياسي لوزارة الخارجية الألمانية ببون. ملف: Türkei 177/Libanon /R 14032, A 2046, Löytved an Wagenheim, Damaskus 22. 12. 1989.

(أي صلاح الدين) التي أبرزها وأوضاعه التي أسسها والخوارق التي أظهرها... أو أن جلالته وقف على أساس الدين الإسلامي المبين وأيقن أنه هو المنهج القويم والصراط المستقيم فعلم ما لناظم أمور العوالم محمد بن عبد الله بن عب المطلب صلى الله عليه وسلم من المسالك العالية التي تتكفل بنجاح البشر وحفظ نواميسهم وتنظيم أحوالهم على اختلاف معتقداتهم...؟".

وأثناء تسويق ألمانيا نفسها على أنها صديقة الخليفة العثماني وحليفة المسلمين وتستغل ذلك في صراعاتها الإمبريالية ضد دول الاستعمار الأخرى، كانت هناك أصوات أخرى في الدولة العثمانية والمشرق العربي تدرك خفايا صداقة ألمانيا وسياستها الإسلامية. ففي مصر، تولت صحيفتا "الأهرام" و"المقطم" ممارسة النقد للسياسة الألمانية تجاه الدولة العثمانية. فاعتبرت أن برلين تغلف صداقتها للإسلام بمساعٍ للهيمنة على التجارة والاقتصادي العثمانيين، فضلاً عن امتصاص ثروات البلاد. فرفضت الصحيفة "الصداقة الألمانية" بالقول: "لكره أن نكون كالسمك يُطعم الطعة في الصنارة، تشكمننا بعد قليل، أو كالطير ينثر لنا الحب فوق فخ منصوب لنا"⁷⁸. أما "المقطم"، فدعت إلى الريبة في "صديقتنا الجديدة (ألمانيا) لما وراء صداقتها الحفية من الغايات الاستعمارية والتجارية"⁷⁹. ومن باريس، انتقد الأمير صباح الدين سياسة الجامعة الإسلامية المدعومة من قبل ألمانيا، معتبراً إيها وسيلة لتقوية دكتاتورية عمه السلطان عبد الحميد.⁸⁰

يبقى أن أبرز المنتقدين لسياسة ألمانيا الإسلامية عموماً وتجاه المسألة المصرية خصوصاً، كان أكثر المعوليين على تلك الدولة من أجل تحرير مصر من الاستعمار البريطاني، ونعني به الزعيم الوطني مصطفى كامل. عمل كامل على تأليب الدول الكبرى، وخصوصاً فرنسا وروسيا، ضد بريطانيا في مصر. وبعد الوفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا عام 1904، التقت كامل إلى ألمانيا، أملاً بتحالف ألماني - روسي ضد الوفاق الودي. وعندما خاب أمله بقيام الوفاق البريطاني - الروسي عام 1907، ولى وجهه شطر ألمانيا، وطلب من الخديوي مصر استخدام صحف ألمانية للدعاية للقضية المصرية في ألمانيا والتودد إلى الإمبراطور وليم الثاني.⁸¹ كما طلب أثناء الأزمة المغربية عام 1905 من إمبراطور ألمانيا أن يقوم بزيارة خاطفة للإسكندرية ويقلب المعادلة الدولية في المسألة المصرية ويضعف مركز بريطانيا في مصر، إسوة بما فعله بفرنسا في المغرب. واعتبر كامل أن ألمانيا يمكنها بذلك أن تثبت صداقتها الأبدية للإسلام. لكنه عاد وشكك بمصداقية سياسة ألمانيا الإسلامية وانتقدها بعنف.

في 23 تشرين الأول 1905، كتب مصطفى كامل في صحيفة ألمانية مقالاً بعنوان "الإمبراطور وليم الثاني والإسلام". ومما قاله، إنه دون حل المسألة المصرية ودون عمل من جانب ألمانيا لإخراج بريطانيا من مصر، فإن هناك عقبة ستظل قائمة في العلاقات بين ألمانيا والإسلام. طرح كامل تساؤلات عدة وعلامات شك حول مصداقية سياسة ألمانيا الإسلامية. فقال: "هل تستطيع ألمانيا أن تكون دولة صديقة لتركيا وتسمح في الوقت نفسه لبريطانيا بأن تقوض سلطة السلطان

⁷⁸ نقلاً عن: عبد الرؤوف سنو، "رحلة إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني إلى الشرق في مرآة الصحافة العربية المعاصرة"، في: تاريخ العرب والعالم، 180 (1999)، ص 66.

⁷⁹ نقلاً عن: سنو، رحلة إمبراطور ألمانيا، ص 67.

⁸⁰ Blackwood's Magazine, 180 (1906), p. 310.

⁸¹ زكريا سليمان بيومي، الحزب الوطني ودوره في السياسة المصرية 1907-1953، القاهرة 1981، ص

على الإسلام"؟ "وهل تستطيع ألمانيا أن تدعي صداقة الإسلام عندما تتخلى عن مصر وتسمح لبريطانيا أن تستأثر بالسلطة العليا على كل العالم الإسلامي؟" وختم كامل مقاله بالقول: "إن الإسلام لا يستطيع أن يمنح صداقة كاملة وغير مجزأة إلا للدولة التي تفكر في إنقاذ مصر التي هي روح العالم الإسلامي".⁸² كذلك الحال، أدرك محمد فريد، خليفة كامل في زعامة الحزب الوطني، أهداف سياسة ألمانيا الإسلامية وأنها تستغل الإسلام لتحقيق مآربها. وعندما أسست ألمانيا مجلة "الجهاد" بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى لاستقطاب المسلمين وراء مشاريعها،⁸³ رفض فريد الاشتراك في تحرير تلك المجلة ورأى فيها دعاية لألمانيا.⁸⁴

استنتاج

لعب الإسلام دوراً رئيسياً في سياسة ألمانيا الخارجية وصراعاتها الإمبريالية مع القوى الأخرى. فتقاربها مع الدولة العثمانية والعزف على نغمة الجامعة الإسلامية وإظهار نفسها كمدافع عن الإسلام، جعل الكثير من المسلمين يعتقدون فعلاً بأنها حليف للإسلام يتكل عليه، ويخاطون بالتالي بين اللغة الدبلوماسية وبين السياسة الواقعية. فذهب البعض إلى درجة الاعتقاد بإمكانية أسلمة تلك الدولة وبالتالي تقوية الإسلام. وللسبب نفسه، أيقظ انتصار اليابان على روسيا من جديد مشاعر المسلمين حول إمكانية أسلمة هذه الأمة والاحتماء بها. حتى أن الشماخي وابن إسماعيل، ذهباً بعيداً في تخيلاتهما حول إمكانية أسلمة الدولتين وقيام "أمة إسلامية" من ألمانيا واليابان والدولة العثمانية. وهناك من تخيل في الوقت نفسه، "أمة إسلامية" أخرى في الشرق الأقصى بزعامة اليابان وتضم الهند والصين.

دلت هذه التخيلات على سذاجة مطلقة وجهل في طبيعة أحوال الممالك والمجتمعات. في السابق، كان سيف الجهاد أو الإعفاء من الجزية أو الحصول على المرتبة الاجتماعية والانخراط في الحياة السياسية هو المحدد الرئيسي للدخول في الإسلام. أما في عصر انحطاط المجتمعات الإسلامية وخضوع دولها للاستعمار وانتفاء الأسلمة بالسيف، أصبح الاقتناع بأحقية الدين الإسلامي هو المحدد والحافز للأمتين الألمانية واليابانية لاعتناق الإسلام. والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة، كيف يقبل مسيحيون ألمان وبوذيون يابانيون على الإسلام وهم يعيشون عصر تفوقهم الاجتماعي والاقتصادي والتقني، ويستبدلون نظمهم بأخرى إسلامية أثبتت عجزها عن وقف انحطاط المجتمعات الإسلامية أو مقاومة الضغط الخارجي؟ ولماذا ينضم الألمان واليابانيون إلى الإسلام وقد استطاعوا أن يحققوا نهضتهم وتفوقهم في ظل الحضارة المسيحية والحضارة البوذية؟ وكيف يمكن تجميع هذا الخليط الوحدوي الأوروبي - العثماني - الشرقي من شعوب ذات حضارات مسيحية وإسلامية وبوذية وكونفوشسية وبنى اجتماعية وأوضاع سياسية مختلفة في أمة واحدة؟ ومن سيكون خليفة المسلمين الجديد، وأية مدينة ستكون عاصمة الخلافة؟

⁸² Berliner Tageblatt, 23. Okt. 1905.

⁸³ Peter Heine, "Al-Gihad – Eine deutsche Propagandazeitung im I. Weltkrieg", in: *Die Welt des Islams*, N.S. 20(1980), pp. 198-199.

⁸⁴ Raouf Abbas Hamed, "Germany and the Egyptian Nationalist Movement 1882 – 1918", in: *Die Welt des Islams*, N.S. 28(1988), p. 24.

على الرغم من أن الشماخي وابن إسماعيل لم يتصديا لمسألة الخليفة المقبل، إلا أنه تبعاً لإحدى الرسائل التي تلققتها "المنار"، كان هناك رأي إسلامي يجعل ميكادو اليابان الخليفة الجديد، أي نقل الخلافة من آل عثمان إلى أسرة متسو هيتو، وبالتأكيد جعل طوكيو عاصمة الدولة الإسلامية. ومن المؤكد أن الشريكين الآخرين في تلك "الأمة الإسلامية" ما كانا سيقبلان بأي انتقاص لقيادتهما.

إن مشروع أسلمة ألمانيا واليابان من قبل الشماخي وابن إسماعيل، شاء أن يبدأ من القمة وليس من القاعدة. وهذا يدل على نهج جديد للدعوة الإسلامية. فعلى ما يبدو كان الرجلان مستعجلان كثيراً لقيام هذه "الأمة" الإسلامية، ولم يشاء إضاعة الوقت في أسلمة القاعدة، معتقدين أن أسلمة الملوك يستتبعها بالتأكيد أسلمة القاعدة، أي الأمة. وهذا يجعل الجانب السياسي للدعوة الإسلامية يتفوق على الجانب الديني. وهنا يتناقض الشماخي وابن إسماعيل مع الجرجاوي حول مسار الأسلمة: من القمة أم من القاعدة. اعتقد الجرجاوي أن الميكادو، الذي لم ير حسب رأيه، تناقضاً بين الإسلام والعقل، ما كان باستطاعته التحول إلى الإسلام وبقاء أمته على دين آخر،⁸⁵ بمعنى آخر، إن نظرية "الناس على دين ملوكهم"، كما تبناها الشماخي وابن إسماعيل، لم يكن بمقدورها أسلمة المجتمع الياباني طالما أن الميكادو لا يستطيع أن يفرض الدين الحنيف على شعبه. وبسبب هذا التناقض، اتصل الشماخي وابن إسماعيل بالإمبراطور والميكادو مباشرة، فيما حزم الجرجاوي حقائبه وسافر في مدن اليابان يدعو للإسلام.

إن انشغال المجتمعات الإسلامية بدعوة ألمانيا واليابان إلى الإسلام في الفترة الزمنية للدراسة للاستقواء بهما، يدل على إدراك ما بأمراض المجتمعات الإسلامية وضرورة إيجاد الترياق الناجع لها. لكن تلمس سبل الخلاص من هذه الحالة، اختلفت بين فئة إسلامية وفئة إسلامية أخرى، تبعاً للمخزون الثقافي والوعي بالقضية والعلاقة الجدلية مع المؤثرات الخارجية. كان الجرجاوي والشماخي وابن إسماعيل وزكي وعاكف وغيرهم على ما يبدو، من المسلمين الذين ظلوا يعيشون تحت تأثير الإسلام في عصر الفتوحات الأولى وتوسيع "دار الإسلام" بالسيف أو بالدعوة، دون أن يدركوا اختلاف الظروف الموضوعية لحالة الإسلام الأول وحالة الإسلام في عصر السيطرة الأجنبية والاستعمار. فخلال ذلك العصر، كان المجتمع الإسلامي قد فقد منذ فترة طويلة تماسكه السياسي و"الديمقراطيته" الفنية الأولى، وانفرط إلى دول متنافسة لها بناها الاجتماعية الخاصة ومذاهبها ونظمها وثقافتها تسيطر عليها أنظمة حكم استبدادية. حتى حمية "الجهاد" التي كانت وراء تأسيس الدولة العربية - الإسلامية، افتقدتها المسلمون، بعدما قنعوا بقدرهم "المرسوم" بانتظار الفرج. وعندما جاء الألمان يتحدثون بلغة إسلامية، واليابان تفتش عن الدين الصحيح، سبب ذلك شعوراً حماسياً بين المسلمين في أنحاء العالم بأن الوقت قد حان لإعادة الفعالية إلى الإسلام من خلال دعوة الأمتين الألمانية واليابانية إلى الإسلام والاستقواء بهما، دون حاجة إلى الإقتداء بنهضتهما أو جعلهما أنموذجاً يُحتذى به. لم يستطع هؤلاء المسلمون، على ما يبدو، أن يعوا أن التقدم الصناعي والتكنولوجي والرأسمالي والعسكري في ألمانيا وتأكيد إمبراطورها على سعي بلاده لاحتلال "مكان تحت الشمس"، ونهوض اليابان في فترة زمنية قصيرة جداً، كانا أول الطريق لتحولهما نحو الإمبريالية. كانت الإمبريالية من ضمن مسببات انحطاط المجتمعات الإسلامية.

على عكس الفريق المؤمن بالأسلمة، كان الأفغاني وعبدو ومحمد رشيد رضا ومصطفى كامل والأمير صباح الدين وغاسبرنسكي وفتاح وغيرهم من ضمن كثيرين رأوا أن إصلاح المجتمعات الإسلامية إنما يبدأ أولاً في الداخل. كان هؤلاء على معرفة أكثر من رجالات الدعوة

الإسلامية والعلماء المسلمين بالخطاب السياسي الأوروبي واللغة الدبلوماسية المستعملة في الدوائر السياسية الغربية. ولهذا، لم يكن من السهل وقوعهم في شباك "السياسة الإسلامية" لألمانيا ولا الانجراف وراء أسلمة اليابانيين للحصول على حمايتهم. كان مصطفى كامل من أكثر المنتقدين لسياسة ألمانيا الإسلامية. كما كان غاسبرنسكي من أشد الرافضين لـ "الموديل الياباني" للتحديث. هذا يعود تحديداً إلى أن الأول خبر السياسة الأوروبية من خلال دراسته في فرنسا وتنقلاته على العواصم الأوروبية. كما أن رفض غاسبرنسكي التحديث الياباني نتيجة اضطراره على ما يدور في اليابان، وذلك بصفته سياسياً وصحفيًا.

خلال مرحلة الإمبريالية الأوروبية والإمبريالية اليابانية، كانت المجتمعات الإسلامية في شبه غيبوبة تجاه السبل التي يمكن اعتمادها لإصلاح نفسها. فاعتقد البعض أن توسيع "دار الإسلام" هو الحل، مسترجعين ذكريات العصور الأولى للإسلام. لكن هؤلاء، وعلى رأسهم الشماخي وابن إسماعيل وجريدة أبابيل، نسوا أن "دار الإسلام" في عصر الفتوحات لم تكن مخترقة من الداخل بعنصر غريب هو الاستعمار. وعندما حدث هذا الاختراق بفعل الصليبيين والمغول، حدثت عملية استنهاض للأمة الإسلامية في مصر وبلاد الشام وتم توحيد المنطقتين معاً من أجل القضاء على العدو في الداخل. فعدا ضعفها الداخلي واختراقها من قبل الاستعمار، كانت المجتمعات الإسلامية عند مطلع القرن العشرين تفتقر إلى صلاح الدين والظاهر بيبرس. كما كانت تفتقر إلى روح التضحية من أجل الانتقال من التخلف إلى التقدم ومن التشرذم إلى الوحدة ومن الخضوع للاستعمار إلى الاستقلال الحقيقي. ومن هنا، جاءت محاولة الاستقواء بالخارج عبر الدعوة إلى الإسلام.